الزهراء

ج ٨ : م ١ — ١٥ شعبان ١٣٤٣

الجملة القرآنية

ما وراء الاكمة !

حضرة الاستاذ العبقريّ ، نابغة الأدب ، وحجة العرب ، السيد مصطفى صادق الرافعي ، نفع الله به

أراك قد استغربت قول احدى الجرائد العربية الصادرة في أمريكا انك لو تركت « الجملة القرآنية » والحديث الشريف لكنتَ الآن المرجعَ الذي لا ينازع ، ولبدَّ مذهبك في البلاغة المذاهب كلها من قديم وحديث

ويحق لك ولغيرك وأيم الله أن يستغربوا هذا التمنّي الدال على مرض روحي عند بعض الناس لأنه قد يجوز أن انساناً لا يعتقد بتنزيل القرآن ولكن لا يوجد عربي سليم الذوق لا يعتقد ببلاغة القرآن وحديث الرسول (ص) ولعمري ان الأمر لكما قال ذلك الذي سأله سائل : هل يقال « فأذاقها الله لباسَ الجوع » فاجابه : ويحك ، هبك تتهم محمداً أنه لم يكن نبيّاً انتهمه أنه لم يكن عربياً ؟

ولكنك لم تلبث أن فهمت مغزى هذه النزعة الغريبة، وعبرت عما ظهر لك في تلك الجملة الموجزة من المرامي والمقاصد البعيدة، فقلت وأنت سيد القائلين «فظهر لي في نور هذه الكلمة مالم أكن أراه من قبل حتى لكأنها (المكرسكوب) وما يجهر به من بعض الجراثيم مما يكون خفيًا فيستعلن ودقيقاً فيستعظم وما يكون كأنه لا شيء، ومع ذلك لا تعرف العلل الكبرى إلا به»

نعم إن وراء الاكمة ما وراءها وان هناك دسائس خفية تظهر بعض أطرافها في هذه الجملة. ولكن دعني أقول لك انه ليس مرادهم العدول الى الركاكة ولا مناصبة القرآن العداوة لمجرد كونه فصيحاً. وليس الامر من قبيل ماذكره أحمد فارس في (الفارياق) من أن بعض خدمة الدين ممن كان يتكلم عنهم يتبركون بالركيك من القول ويستوحشون من العربي الجزل البليغ. ولا هو من نمط مارواه في (كشف المخبا عن فنون أوربا) من أنه كان يعرب التوراة وهو في انكلترة فكان يقف على الترجمة العربية قسيس انكليزي شدا شيئاً من العربية فكان كلما رأى لأحمد فارس جملة شمّ منها رائحة الفصاحة مسخها واستبدل بها جملة ركيكة. فكان الشدياق يعجب من أمره وقد نقل عنه من هذا النسق جملاً يستغرب لها الانسان من الضحك اذ يرى كيف كان ذلك القسيس يتعمّد قلب العالي بالساقط والجيد بالرذل تعمداً ويتهافت على الركيك تهافت الذباب على الحلواء ويصرّح بأنه انما يتوخى بذلك ابعاد الكلام عن شبه القرآن

كلا يا أيها الاخ، ان هذه الفئة لا تمجُّ الفصاحة من حيث هي، ولا تدين بالركاكة التي كان يدين بها قسوس أحمد فارس فيسخر بهم ما يسخر، ولا تحارب اللغة العربية نفسها، ولكنها تحارب منها القرآن . . .

ان هذه الفئة تحارب القرآن والحديث وجميع الآثار الاسلامية. وتريد أن تتبدّل بها كلام الجاهلية وكلام فصحاء العرب حتى من المخضرمين والمولدين

وكل كلام لايكون عليه مسحة دينية . وهذه الفئة قد تعددت غاياتها في هذا المنزع ولكن قد اتفقت في الوسائل . فمنها من لا يجهل بلاغة القرآن وجزالته وكونه من العربية بمنزلة القطب من الرحى ، ولكنه يدس الدسائس من طرف خفي لاقصائه عن دائرة الادب العربي وتزهيد الناشئة فيه بحجة كونه قديماً وان كل قديم هو بالٍ . حتى اذا تم لهم ما يبتغون من غض مكانة القرآن في صدور الناس يكونون قد طعنوا الاسلام طعنة سياسية في احشائه .... على حين هم يزعمون أن الموضوع موضوع أدبي لغوي لا مدخل للسياسة فيه فيزلقون بهذه الدعوى المدحاض كثيرين ممن لو فطنوا لما وراء هذه الدعاية البارزة في زيّ لغوي أدبي من المآرب السياسية الخبيثة لكانوا منها على حذر بل لا نقلبوا عليها وصاروا قرآنيين . ولكن مع الاسف نقول ان الحوادث الاخيرة لا سيما ما جرى قبيل الحرب الكبرى الى ما بعدها قد اثبتت أنه ما زالت هناك فئة تلعب بفئة وتسوقها الى حيث تريد فلا تستفيق هذه من سكرتها الا وقد قضي الامر الذي فيه تستفتيان ..... وهذه الدسيسة التي ظهر لكم مكنونها من جملة واحدة إن هي الا حلقة لغوية من سلسلة دسائس مقصود منها الاسلام لا القرآن من حيث كونه قرآنا ولا الفصاحة من حيث كونها فصاحة

ولقد أشرتم الى ذلك فى مقالكم الجليل فقلتم « لا أعرف من السبب في ضعف الاساليب الكتابية والنزول باللغة دون منزلتها الا واحداً من ثلاثة : فأما مستعمرون يهدمون الامة في لغتها وآدابها لتتحول عن أساس تاريخها الذي هي امة به ولن تكون امة الا به ؛ واما النشأة في الادب على مثل نهج الترجمة فى الجملة الانجيلية والانطباع عليها وتعويج اللسان بها ، وإما الجهل من حيث هو الجهل أو من حيث هو الضعف »

فأنا أقول ان الوجوه الثلاثة متوفرة فى السبب ، ولكن الوجه الأول هو

أقواها . وأصحاب هذا الوجه منهم من يريدون هدم الامة فى لغتها وآدابها خدمة لمباديء الاستعمار الاوروبى ، ومنهم من يشير باستعمال اللغة العامية بحجة أنها أقرب الى الافهام ، ولكن منهم من لا يحاول هدم الامة فى لغتها وآدابها لا حباً باللغة وبالآداب ولكن علماً باستحالة تنصُّل العرب من لغتهم وآدابهم . ولذلك ترى هؤلاء دعاةً الى اللغة والآداب على شرط أن لا يكون ثمة قرآن ولا حديث وان تكون الصبغة لا دينية ؛ وحجتهم فى ذلك حب التجدُّد وكون القرآن والحديث وكلمات السلف كلها من القديم الذي لا يتلاءم مع الروح العصرية في شيء . وآخرون حجتهم في ذلك النزعة القومية التي بزعمهم تناقض النزعة الدينية ، وأصحاب النزعة القومية هؤلاء يقولون انها من باب التجدُّد وان روح القومية هي السائدة فى هذا العصر . فالدين والمعاصرة نقيضان لا يجتمعان . فاما اذا سألهم سائل قائلا : انكم وأنتم من دعاة التجدد ومن قراء الآداب الاوربية لا تنكرون أن كتاب أوربا اليوم من فرنسيس والمان وانكليز وطليان واسبانيول وروس الخ الخ انما آدابهم كلها مأخوذة من اللغات القديمة كاليونانية واللاتينية وان آيات التوراة والانجيل تدور على ألسنتهم وأقلامهم جارية فيها بجرى الامثال لا يكاد يخلو منها خطاب ولا كتاب . حتى ان المنفضين منهم من العقيده يتكلمون بلغة الانجيل والتوراة وهذا كلمنسو الذى لا يوجد حرب على الدين أشد منه كان يجاوب بعض من اعترض عليه من أجل بعض نقاط فى معاهدة فرساي قائلا : ادخلوا فى فرح المعاهدة تجدوها كما تريدون . ومعلوم أن جملة « دخل فى الفرح » هي آية انجيلية ادخل في فرح سيدك . وهذا شيء لا يمكن أن يحصى الا اذا أحصيت رمال بيرين . وانما نريد أن نثبت به كون التجدد والمعاصرة لم يمنعا بقاء لغات أوربا وآدابها على صبغتها القديمة وما آخذها من التوراة والانجيل ومن شعراء يونان وخطباء رومة وان أدباء أوربا في هذا العصر يستهجنون اختراع انشاء

جديد وأسلوب غير مألوف ويحسبونه مخالفا للذوق ويتمثلون بمعانٍ غابرة لم يبق لها أثر . انظر هل بقى أثر للقوس والنشاب فى أوربا وهل يوجد أعرق فى القدمة من القوس والنشاب والى هذا اليوم يقولون : il fait fléche de tout bois وترجمتها : يأخذ نشاباً من كل خشب . ومرادهم بها أنه يستعين بأىّ قوة حصلت في يده . افتراهم وقد أرادوا مراعاة الأحوال العصرية يقولون : يعمل بندقية من كل حديد . أو : يصنع قنبلة من كل ديناميت . كلا لا يقولون ذلك ولا يرون الخلط بين العلوم والآداب ولا يجدون التجدد في الفنون والصناعات داعياً الى تغيير أسلوب الكتابة بحجة أن هذه التعابير كانت يوم لم يكن تلغراف ولا تليفون ولا أشعة رونتجن . أفرأيت كاتباً أوربياً يقول : حلقت بمنطاد الفكر في سماء الموضوع ، كلا ولا ما أشبه ذلك . ولا ينكر أنه قد جدّت في أوربا فوائد وجمل لم تكن مألوفة في الاعصر السابقة كما جدّت أيضاً اصطلاحات فى كل عصر من أعصر اللغة العربية فليس جميع ما اصطلح عليه الناس فى أيام العباسيين كان معروفاً فى صدر الاسلام أو فى الجاهلية ، ولكن كل مايتجدد هنا أو هناك لا بد من أن يرجع الى نصاب اللغة وينزل على حكمها ولن تترك اللغة فوضى لا فى شرق ولا فى غرب . طالما ترنحت الأعطاف عند ذكر الكاتب الفرنسي العظيم أناتول فرانس الذي توفي منذ بضعة أشهر ، وكان هذا الكاتب هو الصدر المقدّم فى الانشاء عند قومه لا يرون أحداً فى منزلته بعد رنان وكان مما تميز به النزوع الى المذاهب الاجتماعية الجديدة والغلو فى كره العقائد الدينية والعادات القديمة والنفور من النصرانية بأجمعها حتى لقد صفّه كثيرون مع الشيوعيين . وبالرغم من هذا فقد اتفق جميع من ترجموه لدن وفاته حتى من أدباء الفئة الاشتراكية والشيوعية على أنه كان في انشائه اصولياً استاذيا مقلداً يحذو حذو راسين الشاعر الذي عاش قبل هذا العهد بمائتي سنة وانه حافظ على الطريقة الكتابية الاصولية المسماة عندهم

« كلاسيك » أي الطريقة المدارسية . وقيل للكاتب المشهور موريس بارس ـ وكان من أنصار الديانة والكثلكة ـ أفلا ترى مبادىء أناتول فرانس وغلوّه في الاشتراكية الخ ، فلجابهم : قولوا فيه من هذه الجهة ما شئتم الا أنه حفظ اللغة . وهي جملة شهيرة يحفظها الجميع عن بارس

نعم يقدر العربي أن لا يكون صحيح العقيدة ولا مسلما ، ويكون نصاب اللغة عنده القرآن والحديث وكلام السلف ، لأنها هي الطبقة العليا التي تصح أن تكون مثالا . ولكن ليس هذا مراد هذه الفئة التي تريد حربا وتوري بغيرها تبغي نقض قواعد القرآن ـ التي هي السد الامنع الحائل دون الاستعمار والثقافة الافرنجية بفروعها ـ وتأتي ذلك من طريق نبذ القديم والبالي والاخذ بالجديد والحالي . ولا يوجد مع الاسف كثيرون ممن ينتبهون لهذه السفسطة ويعلمون مرمى هذه الدعاية بل ان كثيراً من ناشئتنا ومن عامتنا هم من فخ الى فخ . . . ومن جملة هذه الاشراك أن القرآن حائل دون القومية العربية لا يفسح لها مجالا فتراهم ينصبون له العداوة وأمراض العقول كثيرة كأمراض الابدان ولكن أمراض القلوب هي التي لا حيلة فيها . . . هذا وان بعضا من أدعياء الجديد ـ لا دعاة الجديد ـ لا يحاربون القرآن ولا الشرع عن بحث وتدقيق ومقايسة ومقابلة يتبعون المعقول قديما كان أو جديداً ويرتادون المفيد معرقا كان أو محدثا كلا ، بل هم قد اختاروا مذهبهم من قبل فرجحوا كل جديد كيف كان وبدون محاكمة ، وذلك ليقال انهم رقاة عصريون ، أما نظرية أخذ الأحسن من كل شيء واختيار الاوفق من أي جهة جاء فهذه ليسوا منها بسبيل . وانما يؤثرون الشيء اذا علموا أن بعض امم الأفرنجة أخذت به . ولما وافقت هذه الفئة في تركيا على منع المسكرات لم يكن السبب في هذه الموافقة ضرر المسكرات أو النهي الشرعي بل حرموا الخمور لمجرد كون أمريكا حرمتها

وخذ لك هذا المثال :

كنا في مجلس المبعوثين في الاستانة وكان من زملائنا زهراب افندي الارمني الشهير ولم يكن علمه وذكاؤه باقل من شهرته وكان يصعب على مبعوث مهما كان قوي العارضة قاطع الحجة أن يخاصم زهراب لا سيما في التشريع . فاتفق أن بعض مبعوثي الترك من المولعين بالجديد ـ لمجرد ادّعاء الرقيّ العصري ـ اختلفوا مع زهراب في سن مادة قانونية ، فعقدوا لها مجلسا خاصاً وانبرى لزهراب اثنان من هؤلاء العصريين يجادلانه ويحاولان أن يحملاه على رأيهما فبعد حوار طويل تغلب زهراب عليهما وألزمهما الحجة ولم يبق أمامهما الا السكوت . الا ان زهراب أخطأ في شيء وهو عدم معرفته عقلية هذه الفئة فبعد أن أخرسهما في الجدال عاد فقال لهما : وهذا أيضاً وفق أحكام شريعتكم (الاسلامية) التي تقول كذا وكذا . حدثنا الاستاذ الفلكي الرياضي فطين افندي مدير مرصد الاستانة : انه لما قال لهما زهراب هذا القول عادا فنبرا بغتة قائلين : اذا كان الامر كذلك فلا نقبل هذا الرأي . ومن بعد تلك الفلتة لم يعد زهراب قادراً أن يقنعهما بوجه من الوجوه فليس صواب الشيء وعدمه هو الحاكم عند هذه الفئة بل هو مصدر الشيء بدون نظر الى أي اعتبار آخر فان علموا كونه آتيا من طريق الدين أو ملائما لحكم وارد في الشرع استمرّوا مذاقه قبل أن يذوقوه . وليس هذا منحصراً في الترك وفي الفئة التورانية منهم بل عندنا نحن من هذا النخل فسيل في مصر والشام وغيرهما

ويليتك ترى هذه الفرقة على شيء من التحقق بالجديد فيما يلزم فيه الاخذ بالجديد من علم نافع أو فن مفيد أو صناعة دارّة . فان العلم لا يجب أن يكون فيه قديم وجديد بل هو أصل يتفرع منه فروع كل يوم يتحتم على الانسان أن يتتبعها كلها ناظراً الى حقيقتها وصدق تجربتها وفائدتها للاجتماع

كلا ياسيدي فلما رأيت من هذه الفرقة الا الادّعاء الفارغ والنزوع الى الثورة

على ما يسمونه بالقديم وهم ينسون أن هناك مباديء ثابته وبديهيات ليس فيها قديم وجديد وان الاثنين والاثنين أربعة من مائة ألف سنة فلا نقدر أن نعمل على ذلك ثورة وان المقولات العشر مما لا تتناوله الثورة وان الثورة انما هي واجبة على الجهل والوهم لا على الحق والعلم . وان العلم لا يكون قديما وان الأدب لا بد أن يراعى فيه ذوق الامة وتاريخها وعادتها وعرفها وانه ليس بتجربة كيماوية

هذا يا أخي هو المرمى الصحيح ممن أخذ عليك « الجملة القرآنية » فأما الفئام الاخرى ممن عجز عن الفصيح فابغضه وممن يستأنس بالركيك لأنه هو الشيء الوحيد الذي يقدر عليه فهذه خطبها يسير وقلعتها أو هي من أن يحمل مثل قلمك عليها

لوزان ٨ فبراير . شكيب ارسلان

الشرق والغرب

قال الشاعر الهندي رابندرا ناث تاغور :

« أكبر غلطات الاوربيين بوجه عام والبريطانيين بوجه خاص اعتبارهم أوربا مختارة من الله لنشر حضارتها في البشر ، وهي دعوى صار الشرق لا يصدق بها ، ولا يثق بأن في استطاعة روح العدل الاوربي أن يساوي بين أبناء الشرق والغرب بالقسط ، حتى لو بلغ بعض شعوب الشرق منزلة لا تقلّ عن منزلة الشعوب التي ساعدها الحظ الجغرافي على أن تكون من سكان قارّة أوربا

لقد اشتبكت الاواصر بين الامم في هذا العصر ، وما يدرينا لعل بعض الشعوب الشرقية اذا نزلت بها نازلة اليوم أو غداً لا تلبث أن تنتقل الى سواحل البحر الاسود أو الى سواحل كليفورنيا فتكون من أهلها

ومن غلط أوربا تعويلها في الشرق على الرفاهة المادية دون أن تقيم وزنا للمطمح ، فتزعم أن الشرق يكفيه أن ينعم في الرفاهة المادية ، بينما هو حريص على تحقيق مطامحه المعنوية ، ولعل دعوى السلام التي تنادي بها أوربا لا تقصد منها الا الى الرغبة في التمتع بما ادخرته من خيرات »